حول ظاهرة الغموض في الشعر الجديد

بقلم فاضل تامر

تجابه القصيدة العربية الجديدة مشكلات تكنيكية وجمالية وحيانية عديدة خلال عملية نكونها وتكاملها الراهنة تستدعي دراسات جادة مستفيضة . ومن اهم هذه المشكلات الملحة البارزة ظاهرة الغموض التي تطغى على نتاجات العديد من شعرائنا المعاصرين وتتخذ في هذا الظرف بالذات اهمية استثنائية كبيرة حيث يتصاعد النضال التحرري في الوطن العربي وتطرح مسألة وضع الادب في خدمة الجماهير ودفاعا عن الخير والجمال والانسانية . وقد كانت اثارة القضية على صفحات « الاداب »(*) في « نقد القصائد » من قبل الدكتور احمد كمال زكي ومن قبل معظم نقاد الاداب التفاتة طيبة تستحق التقدير والعناية . واعتقد ان الوقت قد حان لتناول هذه الظاهرة بما تستحقه من اهتمام وعناية خاصة انها اخذت تستفحل اخيرا وتعرض الشعر الجديد عموما الى خطر الانعزال والرفض من قبل الجمهور وبالتالي تحرمه من النسغ الذي يمده بالحياة والعافية .

ولا شك ان معالجة ظاهرة هامة كهذه تتطلب اسهام جميع الشعراء والنقاد والكتاب في دراسة جوانب واسباب المسألة وامكانية انقاذ القصيدة الجديدة من خطر السقوط نهائيا في قبو التعقيم والانغلاق . ومن المفيد طبعا تشخيص المبررات والعوامل التي ادت الى الغموض في الشعر العالمي ولكن يجب عدم الركون لها او تطبيقها على نفس الظاهرة في شعرنا الحديث . فمن المعروف جيدا ان الظاهرة ليست جديدة بالنسبة للشعر العالمي . فلقد عرف الشعر الاوروبي مثلا اتجاهات شعرية عديدة اسرفت في السير في هذا الطريق . ولا شك ان ذلك مرتبط بالظروف التاريخية التي نما فيها الشاعر الغربي وتكامل وعيه ووجدانه. ففي ظروف التعقد الحضاري ونفاقم ازمة العصر الصناعي وتناقضاته الحادة فقد عدد كبير من الفنانين الرغبة في الارتباط بالعالم الخارجي ورفضوا قيمه وراحوا يتقوقعون داخل ذواتهم وعوالمهم الخاصة مسقطين من حسابهم مسألة تحقيق ايصال مع الجماهير . وقد كانت رحلتهم هذه تمثل انعزالا عن الطابع العنيف اللاانساني للعلاقات الاجتماعية والانتاجية ولكل مظاهر البناء الفكري وتنصلا من مجابهة مهماتهم الحياتية في الاحتجاج على كل المظاهر اللاانسانية . ويمكن القول بأن الاضطراب والانغلاق الذي ساد نتاجات بعض الشعراء الاوروبيين يعكس الفوضى والاضطراب والتمزق الذي يجتاح الكيان العام للمجتمع الرأسمالي والتخبط في ادراك حركة الواقع المذكور .

ومن هنا نلاحظ ان وضع الشاعر العربي المعاصر يختلف كثيرا عن وضع الشاعر في المجتمع الاوروبي وذلك لان الشاعر الجديد قد ولد في غمرة النضال المتصاعد الذي تخوضه الشعوب العربية وخلال تحولات اجتماعية عميقة طرأت على وضع المجتمع العربي وتميز بارتباطه العميق والاصيل بقضية الحياة والشعب والانسانية . ولذا فان محاولة تطبيق اسباب ومبررات ظاهرة الغموض في الشعر الاوروبي مثلا على نفس الظاهرة في شعرنا الجديد مسألة فيها اجحاف كبير واهمال للظروف الموضوعية والذاتية للمجتمع العربي الحديث ولوضع الشاعر الخاص فيه . ولهذا يجب تلمس اسباب هذه الظاهرة في داخل كيان القصيدة العربية الجديدة وفي وضع الجمهور ومختلف المؤثرات الفكرية والحضارية الاخرى .

لقد تمكن الشاعر الجديد من خلق اشكال فنية وتعبيرية ناضجة عبر تفاعله مع الحركة الدانيميكية للمجتمع العربي مطورا بذلك القصيدة الغنائية وماتحا اياها ابعادا والوانا جديدة لم تعرفها القصيدة الكلاسيكية سابقا . والواقع ان عمق التغيرات التي طرأت على القصيدة الغنائية لم يكن ذا صفة كمية فقط بل يمكن القول بانه كان ذا صفة نوعية ايضا حيث تشكلت ونمت خلال هذه العملية خصائص وابعاد جديدة لها . الا انها لم تتحدد وتتكامل بشكل نهائي بعد . فهي لا تزال في طور التكوين والتشكيل والنضج (١) . وهذا يجعلها تجتاز مراحل تطورية متتابعة نتيجة عدم استقرار وثبات قيمها وملامحها الجمالية والتكنيكية والحيانية خاصة وان عملية التلاؤم بين الشكل والمضمون في الشعر لا تتم وتنضج دفعة واحدة بل عبر صراع عنيف يعيشه الشاعر لتحقيق تكامل ووحدة القصيدة وتوازن مختلف مكوناتها العاطفية والفكرية . والبناء الجديد للقصيدة الغنائية يعتبر معقدا عند مقارنته بالقصيدة الكلاسيكية . فلقد انبثقت اشكال بنائية متقدمة وبدأ الشاعر يهجر المباشرة والتقريرية ويعتمد الايحاء والرمز والبناء بالصور الشعرية .. عن طريق ايجاد « معادلات موضوعية » لانفعالاته وافكاره وتجاربه .. ولا شك ان عملية بناء القصيدة الجديدة خلال الاشكال التعبيرية اللامباشرة كالتعبير بالصور تعبيرا بنائيا ونمو البناء الدرامي في القصيدة وكثير من الملامح الملحمية واللجوء الى الرمز والاسطورة والحكاية وغيرها .. كلها ذات قيمة ثورية كبيرة تفتح الطريق امام الشعر العربي للوقوف في مرتبة الشعر العالمي ، الا انها قد تتحول على يد بعض الشعراء الى عامل هام في ارباك وتشتت الجو الشعري واغراقه بالتعقيد والغموض والضبابية.

ان استخدام الادوات التكنيكية والاشكال التعبيرية الجديدة بشكل مفتعل وفج ودونما اصالة وتفاعل مع واينميكية المضمون والتجربة الشعرية قد يحيل القصيدة الى بناء ميكانيكي مهزوز ومصنوع بشكل قسري . فتحشيد عدد متنافر من الصور واللقطات والخطوط والالوان والايقاعات ، دونما ضرورة فنية وحياتية ، يتحمل في احيان كثيرة ، مسؤولية اغراق الرؤية تحت ستار كثيف من الضباب الخانق خاصة عندما يكون هذا الاستخدام لاغراض زخرفية مصطنعة او للاستعارة المبتذلة وبمعزل عن النمو الداخلي للتجربة الحية .

ان الاستخدام الواعي الخلاق للاشكال البنائية والتعبيرية المعاصرة يتطلب تفهما واستيعابا عميقا لابعادها وطاقاتها الثرة .. وذلك لتجنب التخبط والاستخدام العشوائي المبتذل لها . فاللجوء الى الاسطورة مثلا بعد جديد نكسبه القصيدة الجديدة يهبها مذاقا جديدا وطاقات وافاقا رائعة ، مكنت الشاعر من التعبير عن بعض التجارب الحيانية المعاصرة التي لا يمكن تقديمها عبر الاشكال والقيم الجمالية والتكنيكية للقصيدة الكلاسيكية . الا ان هذا البعد قد يتحول الى واسطة لهرب الشاعر من الواقع الاجتماعي وتنصله من ممارسة مهماته الحياتية وبالتالي انعزاله عن الحياة وحركتها الدافقة . ودراسة الشعر العالمي وخاصة نتاجات بعض الشعراء المعروفين في الغرب ، تكشف لنا عن هذه الحقيقة ، حيث

(*) الآداب ـ العدد (٢) ـ شباط ١٩٦٥

«١» في عدد قادم سأحول تسجيل ملاحظات عن «افق تطور القصيدة الغنائية الجديدة » .

مثلت العودة الى الاسطورة ، لدى بعض الشعراء ، نزوعا الى الماضي وتنوفعا في عالم الحلم واللاوعي ، والذات المنغلقة . ولذا فان على الشاعر العربي استخلاص المفاهيم والقيم والرموز التقدمية والانسانية في التراث الميثولوجي والفولكلوري واعادة بعث الاسطورة من الداخل للتعبير عن تجربة معاصرة حية .. تساهم في اثراء الحياة وتقديم رؤية عميقة لها ونزيد من ارتباطنا وتعلقنا بها . وهذه مسألة يجب ان يضعها الشاعر العربي في مركز اهتمامه وان لا يوقعه السحر الغريب لعالم الميثولوجيا في متاهات قد تمسخ تجربته وتضع سدودا وجدرانا امام الجماهير . وبهذا فان الاسطورة بحد ذاتها لا تتحمل مسؤولية الغموض في الشعر بل هو التناول غير الناضج لها والافتعال في استخدامها الذي يتورط فيه بعض الشعراء في محاولة لتقليد بعض النماذج الشعرية العالمية ولاثارة جو ضبابي قاتم حول تجاربهم وتناجاتهم الشعرية بشكل مقصود . ودراسة شعرنا الجديد تبين لنا بجلاء نجاح عدد كبير من شعرائنا المبدعين في استخدام التراث الميثولوجي عموما كما تبين فشل عدد اخر من الشعراء في تناول هذه التجارب .

لقد تمكن الشاعر الجديد من تمثل وتفهم العديد من الفنون البلاسيكية والادبية واعاد صياغتها وتشكيلها داخل القصيدة وفق ما ستتلزمه طبيعة التجربة الشعرية ذاتها . وهو لم يعد يطفو فوق الواقع الخارجي .. بل راح يغوص الى الاعماق الداخلية للانسان ليكتشف طبيعة الصراعات الداخلية للنفس البشرية وليعري بمهارة كل مخزوناتها. وهذا التناول للعالم الداخلي قد حدد زاوية جديدة للرؤية وخلق تركيبات وتشابكات معقدة نسبيا في التكنيك والبناء تتلاءم وطبيعة عالم الحلم واللاوعي والاصداء الداخلية . وهذا افق جديد يكتشفه الشعر العربي . الا ان بعض الشعراء يغلق كل الكوى والمنافذ التي يتدفق منها النور ويحيل القصيدة الى تشكيلة غريبة من الالغاز المبهمة والخطوط المتشابكة والالوان الداكنة التي تتسبب في وقوعها في اقبية مظلمة تميع حدود التجربة والخط الفاصل بين عالم الحلم والواقع وتربك حركة الاحداث والتداعيات خاصة وان بعض الشعراء يؤمنون بضرورة تسجيل كافة التداعيات والانفعالات والاصداء العفوية مهما كانت عابرة وحتى دون ان يكون لها أي مبرر او مغزى بحجة نقل التجربة اللاواعية نقلا امينا . حتى ان البعض منهم يعجز عن ادراك مغزى وقيمة بعض الرموز والصور التي تحتشد في ثناياه . وهو ينطلق من فهم معين لطبيعة عملية الخلق الفني لدى الشاعر التي يرى انها تتم في جو نفسي من اللاوعي والحلم وبمعزل عن وعي وادراك وبصيرته النافذة . وهذا الفهم لطبيعة الخلق الفني هو بلا شك من ترسبات الفهم الرومانسي والتعبيري للعمل الشعري . فالشاعر الرومانسي يؤمن ان الشعر هو « فيض تلقائي للعواطف الدافقة » على حد تعبير ووردزوورت . اي ان مهمة الشاعر هي اثارة واستحضار وتسجيل كافة الاحاسيس والانفعالات الذاتية التي تنثال وتنهمر بشكل عفوي ودونما تقييد او تنظيم . ورغم ان عملية الخلق الفني تجري خلال جو نفسي معين وعبر مجموع مؤثرات ذاتية وموضوعية ، الا انها لا تجري بمعزل عن درجة معينة من درجات الوعي والادراك وأليوت على حق عندما يؤكد ان على الشاعر ان يمارس تأثيرا نقديا على اثره الفني لفرض خلق توازن بين قواه العاطفية والعقلية ، وان لا تطغى الانفعالات الذاتية على حساب الادراك العقلي الواعي والا فان ذلك سيؤدي الى حدوث اختلال في توازن وتركيب القصيدة ذاتها .

ومن هنا نلاحظ ان ادراك تفسير علمي لعملية الخلق الفني له قيمة كبيرة في تحديد طبيعة التجربة وحدود تناولها ومعالجتها وصياغتها . وهذا يتطلب اعادة دراسة وتقييم لعلم النفس وللتجربة الداخلية واسقاط كافة الاوهام الصوفية والمثالية الذاتية والميتافيزيقية العالقة بفهم عملية الخلق الفني وبنظريات التحليل النفسي والاحلام واللاوعي .

وتحضرني هنا قصيدة كولبردج « kubla khan » التي كتبها خلال حالة اشبه بالحلم . فهي حاشدة بعدد ضخم من الرموز والرؤى والالوان والايقاعات غير المترابطة وغير المنطقية كانعكاس لحالة الحلم المضطربة التي تتمزق فيها كافة العلاقات والارتباطات المنطقية لحركة الاحداث ولنمو التجربة الداخلية الخاصة للشاعر . وهي يمكن تبريرها عند دراسة الظروف التاريخية التي عاشها كولبردج ووضع الشعر الانجليزي آنذاك .

ونظرا لظروف المجتمع العربي المغايرة ، فعلى الشاعر العربي ان يقف موقفا نقديا من الاتجاهات الشعرية العالمية ومن تجاربه الشعرية والداخلية وان لا ينجر في دروب وعرة مضللة كالاستسلام للخيال الرومانسي الجامح ، الذي لم يعد يتلاءم ووضعنا الحاضر . وهذا لا يعني انكارا وتجاهلا لقيمة الخيال الشعري ، فهو عنصر رئيسي في نمو وخلق وصياغة الجو الشعري ، الا ان الاسراف المفتعل في الخيال قد يؤدي الى قطع الصلة بالواقع التاريخي وبالتجربة ويؤدي الى التحليق في عوالم لا وافعية حالمة تجتذب احيانا الكثير من الشعراء المبدعين . ولا شك ان ذوق عصرنا لم يعد يستسيغ التحليقات في عوالم الخيال والطبيعة والعوالم اللامرئية كغاية بحد ذاتها كما كان يفعل شيلي وكيتس ودى موسية وغيرهم من رومانسيي القرن التاسع عشر .

ولذا يجب تحقيق توازن معين بين مختلف عناصر الخيال والمكونات العاطفية والفكرية والجمالية داخل القصيدة . وهذا لا ينم الا بتفهم صائب لطبيعة العمل الشعري ومركز الخيال في خلقه وتكوينه .

الا ان الادوات والاشكال الجديدة التي تفتح طريقا واسعا لتطور واغناء القصيدة الفنائية الجديدة تتحول احيانا الى كابوس رهيب يخنق الوضوح والشفافية ويعرض الشعر الجديد لخطر الانعزال عن الجمهور وبالتالي يقرع ناقوس الخطر للشعر عموما .

وعلى الطرف الاخر يقف التجريد احيانا عائقا في طريق الانفتاح والوضوح ويحيل القصيدة الى تشكيلة من المعادلات الذهنية والفلسفية المجردة . ويضعف الطابع الحسي الشفاف للعالم الشعري . ورغم ان شعراء عالميين قلائل نجحوا في استخدام التجريد في اشعارهم ، الا ان

آخر منشورات

دار الاداب ـ بيروت

ق.ل

- دور العرب في تكوين الفكر الاوروبي
للدكتور عبد الرحمن بدوي ٣٥٠
- تجديد رسالة الغفران لخليل الهنداوي ٢٥٠
- جومبي (رواية) لاديب نحوي ١٢٥
- الخيل والنساء (قصص)
للدكتور عبد السلام العجيلي ٢٠٠
- رحماك يا دمشق (قصص)
للدكتور سهيل ادريس ٢٠٠

التجربة الفعلية قد اثبتت آفة خطرة على الشعر الجديد ينبغي تجنبها . ان التعبير الفني والحسي عن القيم والافكار الفلسفية يجب ان يتم بتفهم عميق للعمل الشعري خلال الاشكال البنائية الجديدة وعبر تجربة الشاعر الاصيلة وليس عن طريق التجريد .

ويجب ان لا ننسى ان الحلقة قد تكون سببا في فوضى واضطراب وتعقد البناء الشعري الجديد لدى بعض الشعراء كما رأينا ذلك في تجارب بعض شعراء مجلة « شعر » . والواقع ان الحلقة العربية ذات قابلية جيدة لاستيعاب التجارب الذاتية والاجتماعية والانسانية المعاصرة في حالة ازالة كافة السدود التي تمنع تطورها ومرونتها . وتبدو حجة كتاب مجلة شعر «٢» في الاصطدام بما اسموه بـ « جدار اللغة » متهافتة ومهومة وغير مقنعة . وفي الحقيقة فانهم يتحملون مسؤولية تعقيد اللغة وتحويلها الى عائق في وجه الوضوح ومحاولات « الياس عوض » الاخيرة ما هي الا مسخ للغة وافتعال تعقيدها وارباكها !

ومن النقاط الهامة التي ينبغي اخذها بنظر الاعتبار عند دراسة ظاهرة الغموض قضية التأثير المباشر الذي يتركه الجو الفكري والسياسي السائد في بعض البلدان العربية ، حيث يتحول الغموض الى كوى صغيرة ننفذ خلالها افكار واحاسيس وتجارب الشاعر فيلجأ الى التلميح والاغراق في الايحاء والتعقيد والغموض بشكل واع مقصور . الا ان استمرار الشاعر في معالجة تجاربه ضمن هذا الاطار والمستوى قد يترسب في النهاية في لاوعيه ويترك بصماته المتميزة على شعره حتى في حالة زوال الجو المذكور . وهذه مسألة ذات اثر كبير في وقوع عدد كبير من الشعراء التقدميين العرب في آفة التعتيم والانغلاق والغموض.

وفي تناولنا لمسألة الغموض ، من الضروري عدم اهمال وضع الجمهور ومستواه الثقافي . فبسبب عصور القهر والاضطهاد الفكري والسياسي التي عاشتها الامة العربية ، ظلت الجماهير الغفيرة ترزح تحت نير الجهل والرجعية الفكرية والتأخر . اذ لم تتح لها ـ خلال اجيال عديدة ـ الظروف الملائمة لكي تتعرف الى كنوز المعرفة البشرية ولكي تواكب التطورات الفكرية العالمية ولتتمكن من ادراك قيمة الآثار الفنية المتعددة للعقل الانساني . بينما نلاحظ ان الجمهور ، في بعض البلدان المتطورة ، يتفهم ويتذوق مختلف النتاجات الفنية والادبية بسبب من الظروف الملائمة التي كونت وعيه وحسه ووجدانه . وهذه الحقيقة تؤدي الى عدم تمكن عدد غفير من الناس من تقييم النتاجات الجديدة وادراكها بشكل كامل . وذلك لانها لم تعتدها سابقا وهي بعد بحاجة الى فترة من الزمن لكي يتكامل نضجها الفني والنقدي . ولا شك ان توفير ظروف جيدة لنشر الثقافة والوعي بين الجماهير سيساهم في استيعاب وتقبل اعقد واروع النتاجات الفنية والفكرية من قبلها .

وانا اذ اسوق هذه الحقيقة لا لابرر ظاهرة الغموض ، بل لاسجل قضية موضوعية لا يمكن اسقاطها عند دراسة الموضوع . وادرك ايضا ان على الشاعر الجديد ان يأخذ هذا الواقع بنظر الاعتبار لانه لا يكتب لنفسه وليس هو بفنان ارستقراطي بل هو يكتب لكل الناس وهو مطالب ـ في هذا الظرف بالذات ـ بوضع عبقريته واشعاره في خدمة النضال العادل الذي تخوضه الامة العربية في طلعها نحو المستقبل وليسهم في تقديم رؤيا واضحة وعميقة للواقع التاريخي والنفسي المعاصر .

ولكن يجب الانتباه الى ان حل هذه المشكلة لا يتم على حساب مستوى الشعر الجديد كالتفريط في الاشكال التعبيرية والبنائية الجديدة او في اللجوء الى التبسيط والسهولة والسطحية فهذه مسائل يجب ان يحذرها الشعر الجديد . اذ بامكانه تحقيق عمق وتكامل نتاجه الشعري دون اللجوء الى الغموض او الى التبسيط والسهولة . والوضوح طبعا لا يتنافى مع العمق أو الاعتماد على الايحاء والشفافية واللامباشرة ، بل هو يعتمدها اساسا في الشعر الجديد . كما ينبغي عدم حل المسألة عن طريق العودة الى المباشرة والى القيم الجمالية والتكنيكية للقصيدة الغنائية الكلاسيكية . فان ذلك شيء لا يمكن القبول به . اذ ان حركة التجديد الشعري مسألة تفرضها الحياة نفسها ، ويجب تلمس الحلول عبر الاتجاهات المختلفة للشعر الجديد وآفاقه المتسعة دائما. ونحن على ثقة بأن الشاعر العربي ، وخاصة الشاعر التقدمي الجديد ، سيتمكن من حل هذه القضية الملحة لصالح حركة الشعر الجديد وبالارتباط الوثيق بقضية الانسان والجماهير وبالتفاعل مع حركة المجتمع العربي ، ومن ثم تخليص القصيدة الجديدة من خطر السقوط نهائيا في وهدة الغموض والتعقيد وذلك لانه يمتلك رؤيا واضحة للعالم وتفهما واعيا لحركة الواقع التاريخي المعاصر ولدوره في الحياة ، ولان القصيدة الحديثة لم تزل في مرحلة التكوين والبناء وبامكانها ان تجد الطريق المشمس دائما .

هذه بعض الملاحظات السريعة التي اثارتها في ذهني ملاحظات نقاد « قصائد العدد الماضي » . واعتقد ان المسألة تحتاج الى اسهام جميع الشعراء والكتاب في مناقشة جادة ومخلصة من اجل اغناء وتطوير شعرنا العربي الحديث .

العراق

فاضل تامر

«٢» « العدو الاخير » ـ من مجلة « شعر » . (صيف ـ خريف ١٩٦٤) .

صدر حديثا

سفر الفقر والثورة

للشاعر عبد الوهاب البياتي

ديوان جديد يسترد فيه الشاعر المبدع وجهه العربي الاصيل ويعبر عن أعمق هموم جيلنا الثائر

الثمن ٢٥٠ ق. ل

منشورات دار الاداب